مقاطعةُ البضائع الأميركيّة
قراءة في البُعدين الثقافي والتربوي

الشيخ حسين كوراني

«إنَّ البضائع الأمريكيّة رُسُل شؤم للإستعمار الأمريكي الأشدّ ضراوة وفتكاً، والذي يبدأ بحملات الإعلان، بدلاً من حملات الجيوش "..." نريد أن يكون اجتنابُ السِّلَع الأمريكيّة مادّةً لتربية أبنائنا التربية الوطنيّة والعقائديّة السليمة».

ما يلي مقتطف من كتاب (مقاطعة البضائع الأمريكيّة، صدر سنة ٢٠٠٢ م) للشيخ حسين كوراني، يتناول الدّواعي الثقافيّة والتربويّة لمقاطعة السّلع الغربيّة، والأميركيّة منها بالتحديد.

لا يُمكن فصل البُعد الإقتصادي في أيّ فرد عن البُعد الثقافي، فليس التّعاطي في المجال الإقتصادي إلّا تمظهُراً للمكوّنات الثقافيّة.

يشمل مصطلح «الإقتصادي» عادةً ما يلي:

١- مجال العمل والكسب المالي.

٢- مجال الإستهلاك.

وبعبارة ثانية مجال دورة المال من تحصيله إلى صرفه، التي هي عبارة عن مجموعة من الخيارات يتمّ إعتمادها أو الرضا بها.

هذا الإعتماد -أو الرضا- بدوره، ثمرة ثقافة معيّنة ترتكز إلى مكوّناتها وتُبنى عليها.

من هنا، ليس تجنّياً الربط بين استهلاك سلعة معيّنة بشكل دائم وبين طبيعة المكوّنات الثقافيّة، بما يشمل الثقافة والوعي السياسيَّين، والحسّ الوطني. كما أنّه ليس جزافاً الحكم بافتراق بين ثقافتَين -قد يصل إلى حدِّ التبايُن- على أساس الإفتراق بين مسلكَين مختلفين جذريّاً في مجال الإستهلاك.

إنَّ مَن يحرص على استهلاك المنتجات الوطنيّة، ودعم الإقتصاد الوطني، وإنْ كان ذلك على حساب الجودة في كثيرٍ من الأحيان، لا يقوم بعملٍ اقتصاديٍّ محض، وإنّما يعزّز قناعاته الثقافيّة أيضاً، وهو يكشف بممارسته في مجال الإستهلاك عن منظومة بُنْيته الفكريّة بأبعادها المختلفة. "..."

لَئِن كان استعمال المصطلحات الأجنبيّة، أو الإفراط في استعمالها يكشف عن المنحى الثقافي، فإنَّ استعمال البضائع الأجنبيّة والأمريكيّة بالخصوص، أقوى في الكشف عن ذلك وأشدّ، فقد يُستعمل المصطلح دون أن يصل قبوله إلى مرتبة التفاعل معه، ولو طُلب ممَّن يستعمله أن يدفع درهماً واحداً بدل استعماله، لتخلّى عنه. أمّا السلعة التي تُؤكَل أو تُلبَس، أو تدخل في دائرة الأمر اللّصيق عموماً، ويُدفَع ثمنها للحصول عليها، وقد يكون باهظاً، فهي ثمرة قرار تداخلت فيه عوامل التقويم، والإعجاب، والرّغبة، والحرص، وهي عوامل لا يمكن لها أن تعبِّر عن نفسها بمعزل عن الخزين والبنية الثقافيَّين.

وإذا كانت المصطلحات تشكِّل مفاتيح ثقافيّة، ويؤسِّس تراكم استعمالها لتشييد مرتكزات لِلُغة تلك المصطلحات، ثمَّ لثقافتها، فإنَّ البضائع مفاتيح لا لنشر المصطلحات فقط، بل لفتح القلوب على بلاد تلك البضائع بكل ما تضجّ به من أبعاد ثقافيّة وسياسيّة، وأنماط سلوك.

إنَّ البضائع الأمريكيّة رُسُل شؤمٍ للإستعمار الأمريكي الأشدّ ضراوة وفتكاً، والذي يبدأ بحملات الإعلان، بدلاً من حملات الجيوش، مروراً باستلابنا النفسي لننهار أمامَ زحف منتجاته الإقتصاديّة، تمهيداً للإنهيار الكبير والنهائي أمام منظومة «قِيَمه وفكره وثقافته»، وصولاً إلى ربطِ أمعائنا ومصيرنا بإرادته، وارتهاننا لدورة معامله واقتصاده، وأجهزته الأمنيّة ودوائر القرار السياسي لديه، على قاعدة «مَن لم يكن معنا فهو علينا»، وعلى قاعدة أنَّ العولمة تعني «أَمْرَكَة العالم».

يوضح ما تقدَّم أهمّ ملامح دَوْر استهلاك البضائع الأمريكيّة في نشر «الثقافة» الأمريكيّة.

أمّا دور هذا الإستهلاك في ضرب الثقافة الذاتيّة للأمّة، فهو حديثٌ ذو شجون، يسلطّ ما تقدّم الضوء على بعض ملامحه، بلحاظ التنافي بين الثقافتَين، وهو يعني أنَّ تقدُّم إحداهما إنّما يتمّ على حساب اجتياح مواقع الأخرى.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنَّ الثقافة التي تتميَّز بالشموليّة، وتولي أهميّة خاصّة للمسلكيّة والأخلاق، وتُحدِّد ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه، هي الثقافة الأشدّ تضرُّراً، جرّاء انتشار ثقافة مناقضة.

وبما أنَّ الثقافة الإسلاميّة كذلك، فإنَّ الإضرار الذي يلحق بالمسلمين من استهلاك البضائع الأمريكية أشدّ، رغم أنّه بالغ الخطورة على غيرهم أيضاً. "..."

وينبغي التنبُّه هنا إلى أنَّ مَن يحاول التقيُّد بضوابط الثقافة الإسلاميّة في مجال الإستهلاك، معرَّضٌ للوقوع في المخالفة لقناعاته غالباً، كما أنَّ الكثيرين يُستدرجون إلى تغيير قناعاتهم الشرعيّة، التي هي خلاصة مفاهيم ثقافيّة.

يُمكن لعمليّة الإستلاب الثقافي أن تبدأ بالسّلع المستهلَكة، ويمكن أن تنتهي إليها، إلَّا أنَّ الخطورة أشدّ عندما تكون هي البداية، فمَن تُحاوره لتُغيِّر قناعاته، أو تقدِّم له «منهجاً علميّاً» يؤدِّي إلى تغييرها، لا يُؤخذ على حين غرّة، كما يحدث لِمَن تسلَّلت عمليّة الإستلاب من باب رغباته المبرمجة في دوائر «فيروس» الإعلان الفتّاك، فهو يخلع هويّته الثقافيّة، رويداً رويداً، وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً، يبدأ ربّما باختيار سلعة واحدة، تشكِّل الطُّعم الذي يقوده إلى قلب الأخطبوط الذي يسلبه كلّ خياراته الأصلية في الأكل، والشرب، والجلوس، والحديث، والنوم، والكتابة، وارتداء الثياب، وتصميم البيت، ونمط علاقته حتى بأسرته. ويفرض عليه صرف أكثر عمره، إن لم يكن كلّه، وهو ما يزال يزيِّن لنفسه أنّه إنّما يفعل ذلك كلّه من موقع الأصالة والإنفتاح، أوالأصالة المنفتحة، متوهِّماً أنّه لم يتغيّر، وإنّما هي الوسائل والأدوات، وليست إلَّا مجرّد قشور!

والنتيجة التي يخلص إليها ما تقدَّم هي أنَّ تحصين الثقافة، لا ينفكّ عن التّدقيق في مجال الإستهلاك، وتجنُّب كلّ البضائع التي لا تنسجم مع المنظومة الثقافيّة المتبنّاة، أمريكيّة وغيرها.

وحيث إنَّ البضائع الأمريكيّة هي الأكثر رواجاً، والخطر الأمريكي هو الأكبر، كان التحدِّي الثقافي في المدى الإستهلاكي أمريكيّاً بالدرجة الأولى، وهو ما يحتِّم مقاطعة البضائع الأمريكيّة.

في البُعد التربوي

ألَا يحقُّ لجيلنا الذي تجرَّع مرارات الهزائم المتكرِّرة، وانعدام الوزن الدائم، أنْ يحلم بأنْ يورّث أبناءه، بقيّة من عزّة نفسٍ وإباء، يمكن لها أن تكون بصيصَ الأمل في ظلامنا العربي والإسلامي الحالِك.

نريد لِأبنائنا أن لا تُستباح حصونهم النفسيّة، ليذكرونا بالخير عندما تتبلور مداركهم، ويعلموا بأنّنا إنْ عجزنا عن إحراز النصر، فإنّنا أسّسنا لِمَا يُمكِّنهم من متابعة خطّ الممانعة والإعتراض، علّهم ينعمون ببركات النّصر ونكون قد أسهمنا فيه.

نريد أن نربِّي أولادنا على الحقيقة كما هي، أنّنا شعوب تَواطأ عليها الجهل والحكّام وأمريكا، فاستطاع الكيان الصهيوني الذي كان نتاجاً بريطانيّاً في البدء، أن يكسر شوكتنا، ويجرِّعنا العلقم، ويُنصِّب علينا أكثر حكّامنا، ويتحكَّم بكلِّ مقدّراتنا، ويُلحق بنا الكوارث، إلَّا أنَّ إرادتنا بقيت عَصِيَّة على التطويع.

لا نريد لأبنائنا الكراهية، ولا نريد لهم الإستلاب، والبَلَه، وضياع الهويّة.

نريد لهم أن يتربّوا على تسمية الأشياء بأسمائها، فليست أمريكا سيِّدة العالم، ومتى كان الجبروت والبطش ينتج قِيَماً حقيقيّة؟!

نريد لهم أن يعرفوا أنَّ ثقافة عولمة أمريكا هي التي تحدَّث عنها «مثقَّفوها» العنصريّون. وأن يقيموا حاجزاً نفسيّاً بينهم وبين كلّ محاولات أمريكا لِمسخ العالم وابتلاعه كما يحلو لها.

نريد لأبنائنا أن يدركوا جيّداً مصدر الخطر المُحدق بهم، فهو أمريكيّ التخطيط والأدوات والتنفيذ، ولولا أمريكا لَمَا استطاع الصّهاينة أن يَبقوا في بلادنا سنة واحدة، ولما استطاع حاكمٌ عميل أن يتأمَّر علينا شهراً واحداً.

وقد واتت الفرصة، إذ وجدنا في مشروع مقاطعة البضائع الأمريكيّة الحُلُمَ الثوريّ الأمثل، الذي لا يستطيع أحدٌ أن يَحُول دونه إذا أدركنا فرادته "..."

نريد أن تكون كلّ سلعة أمريكيّة أو غيرها مادّة لتربية أبنائنا التربية الوطنيّة والعقائديّة السليمة، حيث تصبح مادّة للحوار والسِّجال والتداول، الأمر الذي يشكِّل أفضل مدخل إلى عُمْق قضايانا المصيريّة من بوابة مواجهة العدوّ اللّدود، وكشف كلّ أباطيله وزَيْفه.

نريد أن يتربَّى أبناؤنا في جوٍّ نظيف مِن لَوْثة أمريكا ووبائها، بتنظيف المحالّ والشوارع وملاعب المدارس وصفوفها والبيوت والأجساد، كَمُنطلقٍ إلى تحصين النفس من كلِّ ما هو أمريكي في عالم السياسة، والإعلان، والدَّوْلرة المسمّاة زوراً تحضُّراً وثقافة.

نريد لِأبنائنا أن يدركوا حقيقة معنى «الإرادة» .. وأنَّ أمريكا وغيرها لا يمكنهم أن يستبيحوا معاقل إرادة مَن لا يُعينهم على نفسه، فيظلّ مُصِرّاً على إعمال إرادته في الفسحة المتاحة، وما يزال متاحاً أمامنا أن لا نشترك في أعراس النصر الأمريكي علينا، وعندما نُجبَر على المشاركة، فسنبحث عن آخر فسحة إرادة متاحة، ولو ببعض ملامح الوُجوم.

فسحة الإرادة المتاحة هذه تعني عدم تضييع الهويّة، وعدم نسيان القضيّة، ولتَدُر الدوائر كيفما دارت، فالمهمّ أن يبقى الحصن التربوي، أو بعض مواقعه، أو حتى بعض أطلاله.

على هذه الأطلال التي يحكيها «مشروع مقاطعة البضائع الأمريكيّة»، نريد لأولادنا أن يطيلوا الوقوف. "..."